هـ . ج . ولز

كان هـ . ج . ولز أديباً علميًّا يكتب باللغة الانجليزية . ولـكنه كان آخر من يرضى بأن يصف نفسه بأنه انجليزى فى قوميته ؛ فقد كان يكافح القوميات ويصف العالم بأنه « قريتنا الـكبرى » وقد كتب كثيراً لهذه الدعوة العالمية التى نسير إلى تحقيقها على الرغم من الدعوات الانفصالية التى يزدحم بها عالمنـا الحاضر من أثر العقائد والوطنيات واللغات والمذاهب والإمبراطوريات .

وربما ننسى أشيـاء كثيرة من ولز فى المستقبل . ولـكن ليس شك فى أننا سنذكره بأنه الأب الروحى للعالم الجديد المتحد ، وبأنه أول من عمد إلى وضع التفاصيل لوضع حكومة عالمية ولغة عالميـة وموسوعات عالمية ، بل ايضاً لوضع النصوص والشروط التى يستطيع أن يعيش بهـا أبناء هذا العالم وهم آمنون من استبداد الحاكمين والأولياء حتى الآباء .

وإذا شئنـا أن نعين الطراز الذى ينتسب إليه ولز وجدناه أقرب إلى رجال النهضة الأوربية (من ١٤٠٠ إلى ١٦٥٠) منه إلى عصرنا . فهو من طراز دافنشى الرسام الجيولوجى البشرى المستقبلى . والاختلاف بينهما بسيط ، لأن الأول استعمل الريشة والثانى استعمل القلم ، ولـكن كليهما عرف قيمة العلم ، وكان على وجدان بمغزاه فى مستقبل البشر وعلى تفاؤل بهذا المستقبل .

وقد روى عن دافنشى أنه حين مات حطت على رأسه حمامة ، فكانت رمزاً لطيران الإنسان ، هذه الأمنية التى فكر فيهـا هذا المفكر فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر . وكذلك مات ولز وهو يرى بعينيه فى العام الأخير من حياته هذا الـكشف العالمى ، كدت أقول الـكونى ، العظيم : الطاقة الذرية تخدم الإنسان . وصحيح أن هذه الخدمة كانت للشر والدمار ، ولـكن ماذا فى هذا ؟

أجل ! لقد اهتز ولز من هذا الـكشف بل تزعزع وتـكلم فى تشاؤم . ولـكن

ما كان أحراه لو أنه عاش سنوات بعد هذا الكشف أن ينهض ويكافح ، وفق سيرته الماضية ، لاستخدام هذا العلم الجديد فى خدمة الإنسان . ولا بد أنه كان يظفر . فقد سبق أن حدثنا فى خيال علمى ، بديع مرعب ، عن غارة أبناء أحد الكواكب على أرضنا ، وكيف استولوا فى أيام قليلة على الأرض والبحر والجبل والسهل ، وكيف شرعوا يربوننا كما نربى نحن الأرانب ، فإذا جاعوا مصوا دماءنا ، ثم كيف نجونا منهم بالميكروبات ، هذه الميكروبات التى يزخر بها عالمنا وقد تعودتها أجسامنا ، ولكن أجسام هؤلاء الغرباء لم تتعودها ؛ ولذلك تعفنوا وهلكوا .

وجاءت الطاقة الذرية فى العام الأخير من حياة ولز ترمز إلى هذا الخيال ، كما حطت الحمامة على رأس دافنشى ترمز إلى صعود الإنسان إلى السماء . وقد تحققت الرؤيا الأولى ، رؤيا دافنشى ، فهل تتحقق رؤيا ولز فى استعمار الكواكب ؟

وهذا الطراز الجديد من الأدباء يتكاثر فى أيامنا . أجل ! أولئك الأدباء العلميون الموسوعيون الذين عرفوا القوة التحريرية فى العلم ، أى تلك القوة التى تحرر الناس من الكد وتبسط لهم آفاقا فى الحياة الطويلة العريضة حين يكدّ لنا الحديد والكهرباء والذرة ، ولا يكون لنا بعد ذلك من هم واهتمام سوى الاستمتاع بالدراسة والكشف والاختراع والوقوف على أسرار الطبيعة . ولو أن ولز عاش أيام النهضة الأوربية حوالى ١٥٠٠ لكان واحداً من رجال النهضة ؛ لأنه كان يدعو فى حماسة إلى « البشرية » ، وكان يكافح « الغيبية » . وقد تغير معنى « البشرية » من أيام النهضة لأيامنا ؛ فكانت قبلا دعوة إلى قراءة مؤلفات الإغريق والرومان القدماء . أما الآن فهى ، فى معناها الأمريكى ، دعوة إلى مقاطعة الغيبيات .

وليس غريباً أن تنشأ هذه الدعوة فى الولايات المتحدة الأمريكية حيث العلم مزاج نفسى وتطبيق عملى ومذهب دينى . وليس من شك أن لكل هذا نقائصه بل شروره . ولكن للحوادث حتمية تتجاوز النيات البشرية . ومن هنا الحاجة الملحة إلى مثل هـ . ج . ولز كى يعمل للتوفيق بين المعارف فلا يجعل إحداها تتمكن منا وتوجهنا بدلا من أن نتمكن نحن منها ونوجهها . وقد أوشك أن يحدث مثل هذا من الطاقة الذرية .

عمد ولز إلى القصة . وهو بلا شك قصاص ماهر ، ولـكنه لو خير لآثر على القصة الشرح الموضوعى . وهناك قصص ألفها فى الفترة الأولى من حياته الأدبية يبدو أنه التذ كتابتها وسُرّ بما فيها من براعة فنية . ولـكنه فى السنين الأخيرة ، أو بالأحرى منذ بداءة الحرب الـكبرى الأولى إلى الآن ، جعل القصة وسيلة إلى نشر بحوثه الاجتماعية العلمية . ولـكن يجب ألا نخطئ فنزعم أنه اختار هذا الطراز من القصة ، لأن الاختيار لا مكان له . ذلك أنه حين ابتـدأ يكتب فى العقد الأخير من القرن المـاضى كان العصر والظرف ، كلاهما يتيح إلى حد ما ، نبوغاً فرديًّا أو اقتحاماً شخصيًّا ؛ فكان هناك مجال للبطل فى القصة ، ينوى فيعمل ، ويريد فينجح ، أو على الأقل كان هذا هو الفهم العـام . والأغلب أنه كان فهماً مخطئا حتى فى ذلك الوقت . ولـكن منذ بداءة هذا القرن أخذ الوسط يتغلب على الفرد ، وكان وسط القوات الاقتصادية الآلية ، فصارت الأعمـال « تكييف » النيات وتوجه الإرادات . ولذلك أصبحت قصص ولز رسائل مسهبة فى التحليل النفسى أو التضخم الاقتصادى أو الاتجـاه السياسى ، وانحط شأن الفرد فى القصة لهذا السبب .

سألنى ذات مرة أحـد القارئين عن أحسن كتاب قرأته فى اللغة الانجليزية من حيث الأسلوب . فقلت له ببديهتى : كتاب داروين « أصل الانواع » . ولم أكن مازحا فى هـذا ؛ لأنى أحس أن أسلوب التفكير الذهنى عند داروين خير ألف مرة من أسلوب العاطفة المزيفة أو الخالصة عند أوسكار وايلد ؛ لأن الفن الذهنى خير من الفن العاطفى .

وأسلوب ولز الأديب العلمى هو أسلوب داروين لا أسلوب أوسكار وايلد . ولو أن ولز نفسه سئل عن أسلوبه من أى الطرز هو لأجاب بقهقهة عالية ؛ لأنه لو استطاع أن يكتب بالعامية وأن يصل منها إلى غايته فى سعة الانتشار لما أحجم .

وقد استخدم ولز العلم بمهارة كبيرة فى القصة أكبر من المهـارة التى استخدمه بها چول ڤيرن . ولـكنه وجد أن القصة لا تؤاتيه على إيضاح أغراضه ، فتركها وعمد إلى ماوصفناه بأنه « رسالة مسهبة » فى شرح الموضوعات التى يتماس فيها العالمان : المادى والاجتماعى .

ولعل أعظم ماحمله على ترك القصة أنه رأى أن إغفال البطل منها يجعلها ماسخة ؛ لأن حيوية القصة بأشخاصها . وأغاب القصص ، يجعل مرتكز هذه الحيوية ،

الغريزة الجنسية ، فما تفتأ جميع القصص تتحرش بهذه الغريزة . والانتقال من هذا التحرش العامى إلى البحوث السياسية والاجتماعية والاقتصادية الخطيرة يحدث للقارىء صدمة لا تتفق وفن القصة . وهذه القصص الخطيرة التى عالج فيها ولز مشكلات المجتمع لن تعيش ؛ لأن هذه المشكلات تتغير ويجدّ غيرها بتغير الوسط الاجتماعى الاقتصادى . لأن مالنا من عواطف وأمان وما يرافقهما من سلوك وتفكير إنما هو كله ثمرة الوسط الاجتماعى الاقتصادى . ولذلك فإن القارىء لقصص ولز الاجتماعية بعد عشرين أو ثلاثين سنة سوف يجدها غريبة عن قلبه وعقله ، فى حين أن تلك القصص الأولى التى تحوى « أبطالا » سوف تقرأ فى لذة مهما طال عليها الزمن ، وخاصة تلك التى يعمد فيها ولز إلى فكاهاته التى تقارب بل أحياناً تطابق ماخلفه ديكنز أحد أمراء القصة فى القرن التاسع عشر .

قال ولز فى كتابه « طوالع الإنسان » ، وهو كتاب يبحث فيه مشكلات البشر ومستقبلهم

« لقد استغرق جزءاً كبيراً من حياتى الوجدانية ، كفاحى لأجل نشر المعارف المثمرة . فقد حاولت أن أجمع وألخص المعارف الراهنة كى يستطاع استغلالها فى المعيشة البشرية ، وكى أحمل غيرى ومن هم أكفى منى على أن يقوموا مثلى بهذا العمل . وكذلك عملت كى أجمع بين النظم غير المتناسقة من التفكير بشأن الحقائق ، وهى نظم ، يتجاهل كل منها الآخر ، فى بلادة الذهن وإضاعة الفرصة ، كما أن كثيراً من التشوش الذهنى فى التفكير البشرى يعود إليها . ذلك أن هذه الفلسفات والغيبيات المتناقضة ، التى لم تتناسق ، تزحم الذهن البشرى . وعدم تناسقها هذا يرجع إلى أن كلاًّ منها يتجاهل الآخر . وأنا لا أطيق هذه المتناقضات ؛ لأنى حين أعالجها أجد أنها تقلقنى وتربكنى . . . وما لذهنى من ميزة خاصة أو نقص خاص إنما يرجع إلى صفة واحدة . فاذا مدحت قلت إن عقلى يجابه المشكلات ، وإذا ذممت قلت إنه لا يفطن للخفى . فأنا لا أطيق التفاصيل المربكة أو الأكاذيب العرفية لأنى أخشاها جميعاً . . . وأنا أطرق فكرتى كما لو كانت سنداناً . . . »

أجل ! لقد طرق ولز طائفة من الفكرات ودق عليها فى تكرار ، ولكن ، فى كل مرة ، يختار ناحية أخرى منها غير تلك التى دق عليها من قبل . ولذلك

انتقل من القصة إلى المقال الاجتماعى ، ثم جعل القصة تتناول بحوثا اجتماعية مختلفة . وأخيراً ترك القصة أو كاد إلى تأليف الكتب الضخمة فى الاجتماع .

وقد نجح كل من أبسن وشو فى استخدام الدرامة للبحوث الاجتماعيــة . واحتفظ الأول بمئة فى المئة من فن الدرامة ، واحتفظ الثانى بأكثر من خمسين أو ستين فى المئة . ولكن لا يمكن أن يقال إن ولز نجح فى استخدام القصة حتى إلى الحد الذى بلغه شو . والحق أن المسرح يتيح للمؤلف معالجة المشكلة الاجتماعية أكثر مما تتيحه القصة ؛ لأن الأشخاص على المسرح يجسمون المشكلة بلا شرح مسهب لما تحويه من عُقَد . ولكن مؤلف القصة يضطر إلى مثل هذا الشرح فتنقلب القصة إلى بحث اجتماعى كثيراً ما يتعارض مع أصول الفن فيها .

عندما أتأمل حياة ولز ومؤلفاته أحس أن شهوته الذهنية الأولى هى العلم . فقد تتلمذ للعظيم توماس هكسلى (والد جوليان وألدوس) ، الذى جعل من نظرية التطور مذهبا جهاديا ، وقضى حياته فى مكافحة المظلمين والغيبيين كى يجعل هذه النظرية مألوفة تتحدث عنها الصحف ويسلم بها العامة . وقد نجح فى ذلك . وشىء من هذا الروح الكفاحى قد انتقل إلى ولز ؛ فإنه حين ألف « خلاصة التاريخ » بل حتى فى أواخر السنين من عمره لم يكن ينسى أن ينبه إلى أننا كنا سمكا قبل ٣٠٠ أو ٤٠٠ مليون سنة ، فكيف نكون بعد مثل هذه الملايين فى المستقبل ؟ وقد نبعت تكهناته المختلفة ، الخيالية والحقيقية ، من هذه البؤرة . فمن التكهنات الخيالية هاتان القصتان : « حرب العوالم » و « ناس كالآلهة » . ومن التكهنات الحقيقية الحرب الأوربية الكبرى الثانية ، والدبابات والطائرات ، والقنبلة الذرية . وكانت بصيرته ، لسوء حظ البشر ، صادقة فى كل ذلك .

ولكن ولز انقطع عن البحث العلمى ؛ لأنه اضطر عقب حصوله على درجة « بكالوريوس فى العلم » إلى ان يسعى لرزقه ، فاختار القصة الخيالية والفكاهية أولاً حتى إذا زالت عنه الحاجة الملحة عمد إلى البحوث العلمية الاجتماعية ، أو ، كما قال هو ، محاولة التنسيق بين المعارف المادية والنظام الاجتماعى . وكأنه بهذه البحوث قد استأنف إشباع شهوته العلمية الأولى ولكن فى الميدان الاجتماعى .

وكتاب « خلاصة التاريخ » يعد حسناً من حيث إنه محاولة أولى فى اعتبار

العالم أمة واحدة تسير متساندة فى موكب الحضارة : الكتابة فى مصر ، والورق فى الصين ، والمطبعة فى ألمانيا ، ثم بعد ذلك انفجار الثقافة على العالم كله . أو ، من قبل ذلك : الزراعة فى مصر ، ثم نقود الأسكندر وجيوشه وفتوحاته ، ثم انفجار الحضارة الإغريقية المصرية الرومانية فى البحر المتوسط . ثم يتصل العالم ويتشابك ، حتى إننا نرى ملكا هنديًا فى بداءة القرن الثانى قبل الميلاد يبعث إلى الأسكندرية يدعو المصريين إلى البوذية . ثم يزداد التشابك بمخترعات القرن التاسع عشر ثم القرن العشرين إلى أن يعود استقلال الأمم وانفرادها مستحيلا بل ضارًّا . إذ يجب التوحيد السياسى للعالم بحكومة واحدة .

وقد عاش ولز أيام طفولته فى بدروم ، وكانت أمه خادمة للأسرة التى تعيش فى الطبقتين العليين . وكانت أمه ، كما هو الشأن فى الخادمات ، تخشى صعوده إلى إحدى الطبقتين . ولذلك هو يذكر من أيام طفولته ذلك البعبع الذى يسكن فى الطبقة العليا . وقد أتاح له نجاحه أن ينتسب بعد ذلك إلى الطبقة المتوسطة ، ولكن بقى فى نفسه خوف الفقر إلى يوم وفاته . وعندى أن هذا الخوف هو ، فى سيكلوجية الأعماق الفرويدية التحليلية ، السبب لكراهته للاشتراكية الماركسية أو حرب الطبقات ؛ لأنه أبى أن يمثل طبقات العمال الذين ولد معهم فى ظلام البدروم ، وأصبحت دعوته إلى الاشتراكية هى الدعوة الفابية أى اشتراكية التطور السلمى بالإصلاحات المتدرجة التى يقبلها أبناء الأمة جميعهم فقيرهم وثريهم .

وقد زار روسيا مرتين ، فلم يرتح إلى اشتراكيتها ، وفهم منها مثلما فهم برنهام الأمريكى فى كتابه « الثورة الإدارية » أى إن القائمين بإدارة المصانع والمزارع والمكاتب قد أخذوا فى النظام الجديد مكان المالكين فى النظام القديم من حيث التمتع بامتيازات الأجور أو الرواتب العالية وغيرها . ولكن ليس شك فى أن حجة ولز ضعيفة جدًّا فى مكافحته للماركسيين . وقد أنفق كثيراً من جهده فى هذه المكافحة العقيمة ، وكان فى مستطاعه أن يتركها ، وخاصة لأن موضوعه الأصلى وهو « الحكومة العالمية » لايحتاج إلى مثل هذه المكافحة . فقد آمن هو بالاشتراكية ، ووجد أنها ضرورية للسلام والطمأنينة للأفراد والأمم . ومشاجرته هنا للماركسيين الإشتراكيين تشبه مشاجرته القديمة فى ١٩٠٦ حين وقف فى الجمعية الفابية ، وهى جمعية تدعو إلى الاشتراكية

السلمية التدرجية ، يدعو إلى الكفاح السياسى ، فى حين كان زعماؤها قانعين بالكفاح الثقافى . ووجد نفسه أيضاً أنه ضد مبادئ ماركس أى ضد حرب الطبقات ، والمنطق الكلامى ، والدوليات ؛ مع أن هذه « الدوليات » كانت الطليعة للبرنامج العالمى الذى انتهى إليه بعد ذلك . ولكن يمكن الدفاع عن ولز هنا بأنه أيقن فى تلك السنين أن المزاج الانجليزى أقرب إلى المبادئ الفابية السلمية منه إلى المبادئ الماركسية . وحكومة العمال القائمة الآن ، بعد أربعين سنة من مشاجرته مع الفابيين ، تدل على أنه قد صدق هنا أيضاً فى تكهنه السياسى ، كما سبق أن صدق فى تكهناته العلمية . وفى تلك الفترة وضع كتابه عن الاشتراكية « عوالم جديدة للقدامى » ، وغايته أن يثبت أن الأثرياء والمتوسطين يجب أن يقبلوا النظام الاشتراكى مثل العمال ؛ لأن مصلحتهم تقتضى ذلك .

ولكن ولز سيعرف فى السنين القادمة بجهاده لأجل التوحيد العالمى . وأول ما نجد هذا الاتجاه واضحاً فيه هو فى كتابه الذى ألفه فى ١٩٢١ « استنقاذ الحضارة » . وفهرست الكتاب تدل عليه : المستقبل المرجح للبشر ، مشروع الدولة العالمية ، التوسع الوطنى إلى الدولة العالمية ، إنجيل الحضارة ، تعليم البشر ، الكلية والجريدة والكتاب .

وهذه الفهرست لا تحتاج إلى شرح . فهو يقترح إيجاد حكومة عالمية تهئ البشر جميعهم بتعاليم موحدة إلى وطنية عالمية .

وفى ١٩٣٢ وضع كتابه « أعمال البشر وثروتهم وسعادتهم » وهو دراسة موضوعية للحال القائمة للعالم فى تلك السنة كأنها الجغرافية الاجتماعية . اعتبر الفهرست أيضاً : كيف أصبح الإنسان حيواناً أقتصاديًّا ، كيف تعلم الانسان التفكير والتسلط على القوة والمادة ، التسلط على المسافات ، التسلط على الجوع وكيف يغتذى الإنسان ، التسلط على المناخ ، كيف تشترى السلع وتباع ، كيف ينظم العمل ، لماذا يعمل الناس ، كيف يكافأ العمل وكيف تجمع الثروة ، الغنى والفقير وخصومتهما التقليدية ، مهمة المرأة فى عمل العالم ، حكومات البشر والقتال الحربى والاقتصادى ، عدد البشر وصفاتهم ، الطاقة الفائضة للبشر ، كيف يعلم البشر ويدربون ، طوالع البشر .

ثم كتابه « أشكال الأشياء القادمة » وهو تعقيبات وشروح وتكهنات عن الكتاب السابق . وقد وضعه فى ١٩٣٣ .

وأخيراً كتابه « طوالع الإنسان » وقد ألفه فى ١٩٤٢ . وهو أيضاً مثل الكتاب السابق تعقيبات وشروح .

وصفحات هذه الكتب الأربعة تبلغ نحو ألفى صفحة كبيرة . وهى جميعها حافلة بالإحصاءات والإشارات إلى دراسات أخرى .

ومن هذه العجالة يرى القارئ أن ولز طراز جديد من الأدباء . أجل ! هو أديب علمى ، سوف نرى فى هذا القرن مئات يسيرون على الطريق الذى شقه . ولن يكون هذا للتقليد ، ولكن لأن أدباء القرن العشرين سيجدون من واجبهم أن يقفوا حياتهم على حل المشكلة القائمة ، وهى التقدم الرائع فى العلوم المادية مع الجمود التام فى العلوم الاجتماعية ، وما ينتجه هذا من الرعب فى جميع المتبصرين المتكهنين الذين يرون الطاقة الذرية تصطدم بالغيبيات .

سلامه موسى